# صورة الأم أمينة في ثلاثية نجيب محفوظ الرَوائيَة
# بين القصرين - قصر الشَوق – السَكرية

أ.د :صالح مفقوده
جامعة محمد خيضر– بسكرة

**تقديم**

تحتوي ثُلاثية نجيب محفوظ على عدد معتبر ومتنوع من النَساء، فمنهن المرأة النَمطية الخَضُوع ومنهنَ المرأة الانتقالية المُتحررة ، ومنهنَ المُطربة، والمُبتذلة، والخادمة ؛ فقد أوردت الرَواية ما يزيد عن عشرين اسمًا من النَساء غيرأنّ الشّخصية المحورية في الثّلاثية هي أمينة ، فمثلما يدور الحديث عن السّيد أحمد عبد الجواد بالنسبة للشخصيات الذّكورية،تُمثل أمينة الشخصية النسائية الأساسية في الرواية وكلاهما يُمثل جيل الآباء الذي يخلفه جيل الأبناء، ثم الأحفاد ، وأمينة في الرّواية يُمكن اعتبارها أُنْموذجا للزوجة الأم في الطبقة الوسطى ، فهي في الرّواية الأصل الذي سيحدث بعده تطور في جيل الأبناء والأحفاد، ولكنه تطور وإضافة عن الأصل الذي تُمثله أمينة بصفاتها وأخلاقها. وسنتتبع وصف هذه الشخصية كما وردتْ في الرّواية من جوانب مختلفة مما يمكّننا من معرفة صورة المرأة بصفة عامة، ويُعطينا ضوءا عن المجتمع المصري في مابين الحربين العالميتين .وبالرغم من صعوبة الفصل

بين المرأة والرجل ، إلا أننا سنأخذ أمينة كنموذج لنمط فكري معين يمثل منظومة ثقافية قائمة تحاول الدفاع عن نفسها في عالم متغير ، فتخترقها التغيرات عبر الزمن ، وتحــدث حركية تصورها الثلاثية.

**1 ــ الوصف الجسدي لأمينة:**

تبدأ رواية "بين القصرين" الجزء الأول من ثلاثية نجيب محفوظ بالحديث عن أمينة ، وقد استيقظتْ كعادتها عند منتصف الليل مُنتظرة زوجها الذي يعود من سهراته خارج البيت مع أصحابه ، يصف الكاتب أمينة بقوله : « كانت في الأربعين متوسطة القامة ، تبدو كالنحيفة ، ولكنّ جسمها بض ممتلئ في حدوده الضيّقة لطيف التنسيق والتبويب ،أمّا وجهها فمائل إلى الطول مرتفع الجبين دقيق النّسمات ذو عينين صغيرتين جميلتين ، تلوح فيهما نظرة عسلية حالمة ، وأنفٌ دقيق يتّسع قليلا عند فتحتيه، وفم رقيق

الشّفتين ينحدر تحتهما ذقن مدبب ،وبشرة قمحية صافية تلوح عند موضع الوجنة منها شامة سوادها عميق نقي »(1)

إنّ هذا الوصف الجسدي لأمينة ،الذي كان في بداية الرّواية أي عام 1917 من شأنه تجسيد ملامح هذه الشّخصية الأساسية ، والتي ستورث بعض صفاتها للأبناء والبنات ، ومجموع صفاتها يدل على جمال مقبول لهذه المرأة ، وتوحي صفاتها بالهدوء والوداعة، والحرص على أداء الأعمال المنوطة بها، وتلك هي مواصفات الجمال في المجتمع العربي المحب للمرأة النّمطية ، يقول عمر رضا كحالة عن جمال المرأة : « لاتكون المرأة جميلة إلاّ إذا كانت عيونها وديعة ، ونظراتها وأمارات وجهها ومظاهر عضلات وجهها لاتدل إلا على العطف والحنان والرقة النّسائية ، لاخشونة تظهر على تقاطيع وجهها ولا قوّة إرادة أو قسوة ، أو تعمق في التفكير تشوه نظراتها وجبينها لأنها وُجدت في هذا العالم لتمثيل الحب بأجمل معانيه»(2)

وإذا كانت الرّواية قد وصفت أمينة بأنها في سن الأربعين من العمر، فإنها تذكر في موضع آخر أنها تزوجت في سن الرابعة عشرة من عمرها، فقد مكثت في هذا البيت مدة ربع قرن من الزمان، أنجبت خلالها أبناءها: فهمي وكمال وخديجة وعائشة، ولا تبقى أمينة بهذه الصفات ، فالزمن يفعل فعلته بجسدها إذْ بعد مدة من الـــزمن ، ومـــع بدايـــة الجزء الثاني من الثلاثية "قصر الشوق" يصفها الكاتب بقوله : « بدتْ في جلستها غيرهـــا بالأمس ، نحفت واستطال وجهها أو لعلّه تراءى أطول مما هو، لِما حل بالخدين من رقّة ، وقد انتشر المشيب فيما انحسر عنه منديل رأسها من خصلات ،فأضفى عليها روح كبر أكثر مما تستحق ، وغلظت الشامة في وجنتها قليلا ، على حين نمّت عيناها ـــ إلى نظرة الخضوع القديمة ـــ عن شرود مُزِج بالحزن »(3)

لقد فعل الزمن فعلته بأمينة ، فقد قُتل ابنها البِكر: فَهْمِـــي رميًـــا بالرصـــاص ، ومضى الزّمن بها فصارتْ جَدَّةً إذ تزوجت ابنتاها عائشة وخديجة ، وأنجبـــت البنتـــان، وعلى الرغم من كل ذلك فقد بقيتْ سليمة الجسم محافظة على عملها المنزلي .

وفي الجزء الثالث من الثلاثية "السكرية" يصف الكاتب أمينة فيقول : إن يـــداها نحيلتان معروقتان،وعودها قد جَفَّ ، ورأسها اشتعل شيبا « ومع أنها لم تبلغ الســـتين إلا أنها بدت أكبر من ذلك بعشر »(4) ومع كل ذلك فقد ظلّت أمينة تقوم بعملهـــا المنزلـــي ، والقيام بشؤون الزوج إلى أن تُوفي ، فتتدهور حالتها وتلحق به ، إذ تصاب هي بـــدورها

بارتفاع الضغط الدموي الذي يسبب له الشلل والدخول في غيبوبة ، وتفارق الحياة بعد سنة من وفاة زوجها السيد أحمد عبد الجواد .

يتتبع الكاتب أمينة منذ كهولتها وإدارتها لأعمال المنزل وتنظيمه ، ثم يعود القهقرى لطفولتها، وقد كان مناسبا وصف هذه الطفولة والعودة إليها حين تعرضت أمينة للطّرد من بيت الزوجية لفترة محدودة، فبعودتها إلى بيت الأم تحيا فيها الطفولة مرة أخرى ويكون ذلك مناسبا للحديث عن الماضي ، ويصفها بعد ذلك في مرحلة الكِبر إلى أن تموت ، فتنتهي الثلاثية بموتها.

**2 - طفولة أمينة**

حدث أنْ طرد السيد عبد الجواد زوجته ، فانتقلت إلى أمها بالْخَرَنْفَشْ ،قضت أيامًا هناك ، فسمح ذلك بالحديث عن ماضي أمينة ، فيما يدعى تِقنيا بالارتداد أو البنية الارتدادية ، وتعني «أنّ الكاتب يعمد عن طريق شخصية مركزية تتسم بالحركية ... إلى قطع الموقف الآني أو المشهد الراهن ، الذي يتسم بالغموض ، أو بالتعقيد، أو بالرداءة، أو ببلوغه ذروة اليأس ، أو بوصوله إلى درجة الغليان النفسي ، وذلك بالرجوع عنه أو الارتداد بذاكرة الشخصية إلى لحظات مغايرة ذات بعد ماض إما بتنوير هذا الموقف أو المشهد الراهن أو بتعميقه » (5)

لقد تم الانتقال إلى الزمن الماضي للحديث عن طفولة أمينة في حضور والدتها ، لقد كانت أمينة الوحيدة التي سَلِمَتْ من بين إخوتها من الوباء ، وقد ذكّرتْها والدتها بذلك ،فشعرتْ بنوع من السعادة ، ولكن وضعها آنذاك ،وبُعْدَها عن الأبناء وبيت الزوجية كان يُكدّر صفوها ، ويُنغّص عليها الشعور بحلاوة تلك الأيام السعيدة التي تسترجعها بين الحين والآخر عندما كانت طفلة في حيّها (6) تستأثر بحب أمها وأبيها الذي كان أزهريًّا، وعنه أخذت معلوماتها الدينية ، فبقيتْ مُعتزة به ، وعندما أخبرها كمال بأن الدّراسة التي يريد مزاولتها في الجامعة لها صلة وثيقة بالدين تهلل وجهها وقالت له : هذا هو العلم حقا ، علم أبي علم جدك، إنه أجلُّ العلوم » (7)

نشأت أمينة إذن في بيت بسيط ، ولكنّها معتزة بالعلم والدين ، وكانت أمينة صورة عن أمها ، في جسدها وفي أخلاقها، ولما انتقلت إلى بيت الزوجية ، ووجدت في أخلاق زوجها مالم تتعود عليه من قبل فقد كان يقضي سهراته خارج البيت في اللّهو والطرب والسُكر ، وحاولتْ ذات مرّة أنْ تعترض على هذا السلوك بأدب واحتشام فأنَّبَها

على ذلك ومنذئذ لم تعد لمثل ذلك الاحتجاج ، ورضيت بالأمر الواقع ، بل إنها استحسنت من جهة أُخرى أخلاق الرّجل الذي يتنازل عن بعض كبريائه عندما يعود إلى البيت في آخر الليل وآثار الخمرلاتزال بادية عليه ، وقد كان يحرص ألا يعود إلى البيت حتّى يخف مفعول الخمر ، فلا يظهر ضعيفاً ، ولكن مع ذلك فالخمر تجعله ليّنا بعض الشيء مع زوجته ، فهو عند الدّخول يحييها قائلا مساء الخير يا أمينة ، وقد يُحدثها عن بعض أمور الأسرة أو بعض شؤون السياسة مما لايتحدّث به في النّهار.

إن منشأ أمينة و طفولتها تنسجم تماما مع قيّمها الفكرية ، و طبيعتها الخاضعة تمام الخضوع للزوج ، خلافا للزوجة الأولى التي رفضت سيطرته عليها فكانت النتيجة الطلاق

**وصف حياة أمينة و نشاطها المنزلي**

**الطاعة التامة للزوج و القيام بخدمته**

أمينة مسخّرة بصورة كاملة لخدمة البيت ، تساعدها في شؤون التنظيف والطبخ الخادمة أم حنفي ولكنها في خدمة الزوج تنفرد شخصيا بالقيام بهذه المهمة ، فهي تنهض من تلقاء نفسها في منتصف الليل مُنْتَظِرة عودته من السّهر ، لتفتح له الباب وتُنير له الطريق بمصباح محمول، وتساعده في خلع ملابسه ونزع حذائه ، وغسل رجليه ، وتقديم كل ما يريده والتأمين على كلامه ، والاستجابة المطلقة لكل رغباته، ولم تكن أمينة تسمح لنفسها بالجلوس إلى جانب الزّوج ، بل كانت تسحب من تحت السرير "شلتة" تجلس عليها « إذ لم تكن ترى لنفسها الحق في أن تجلس إلى جانبه تأدبا »[8] ولم تكن تتكلم في حضرته حتى يأذن لها بالكلام ، وتبقى إلى أن ينام فتتسلل إلى حجرتها لتنام وفي الصباح تنهض باكرا لإعداد الطعام فتُشْرِف بنفسها على تقديم الفطور، ثم تقديم مآكل إضافية له ، وتسليمه الملابس ، وزجاجة العطر ، وعند خروجه تتبعه بالنظر من خلال المَشْرِبية لتتلو دعواتها له وللأبناء بأن يحفظهم الله من الحسد ، فالمشربية هي وسيلة اتصال الحريم بالعالم الخارجي ، وهي بمثابة حجاب، ولذلك فإن المشربيات اختفت باختفاء الحريم ، وسفور المرأة المصرية ، وخروجها إلى العلم والعمل.

هكذا أوقفتْ أمينة حياتها على خدمة زوجها أحمد الذي لا تدعوه باسمه بل باسم سيّدي ،وهو اللفظ الذي تطلقه أيضا على الابن الأكبر لها فتقول : سيدي الصّغير ، ولا تكاد تفرض رأيها إلاّ على بناتها .

إن رأيها منعدم تماما في حضرة الزوج ، وفي بداية حياتها الزّوجة ضاقتْ ذرْعًا بسهره خارج البيت وكلّمته في أدب واستحياء عن هذا السّهر ، فكان أنْ لقّنها درسًا لــن تنساه لقد أمسك بأذنها وقال لها بصوته الجهوري « أنا الرجل الآمر النّاهي لا أقبل علــى سلوكي أية ملاحظة وما عليك إلا الطاعة فحاذري أن تدفعيني إلى تأديبك »[9]

ومنذئذٍ لم تُفاتحه في أمر السّهر، وتقبّلت الأمر على أنّه قضاء وقدر، لقد كانــت تذهب بها الخيالات مذاهب ، خاصة وقد قيل لها :إنّ حياة رجل مثل زوجها لاتخلو مــن نساء ،فغاضها ذلك واشتكت لأمها التي واستْها وهوّنت عليها الأمر قائلة : « لقد تزوجك بعد أن طلّق زوجته الأولى وكان بوُسعه أن يستردّها لوشاء، أوأن يتزوج ثانيــة وثالثــة ورابعة، وقد كان أبوه مِزْوَاجًا،فاحمدي ربنا على أنّه أبقاك زوجة وحيدة »[10]

تمثل أمينة بهذه المواصفات نموذج المرأة النّمطية ، وتمثل الأنوثة من حيث هي «الضعف والسّذاجة والسلبية والاستسلام، وهي صفات كلها تتفق مع الدور الــذي حــدده المجتمع للمرأة ، وهو خدمة الرجل وإرضاؤه، الأنوثة هي أن تتميز المرأة بصفات الخدم المطيعين المستسلمين الضعفاء ، أما الرجولة فهي أن يتميز الرجل بصفات الأسياد مــن قوة إيجابية وحزم وعقل وحكمة »[11]

إن أمينة تمثل المرأة النمطية التي تُعرّفها إيمان القاضي بقولها : « إنهــا ابنــة المجتمع الأبوي المُتمثلة لموروثه ، والصادرة عنه،القانعة بقِيمه المحافظة علــى مُثُلــه ، حتّى لو عانت منه، إنّه كالقدر الذي يكون مُدمِّرًا لاسبيل لرده ،أو الثورة عليه » [12] .

فأمينة امرأة نمطية من بداية الرواية إلى نهايتها، ولذلك فإنها لاتحس بوجودهــا إلا بحضور الآخر والقيام بخدمته ، وخاصة الزوج ، ولذلك فإنّها تقضي أعزّ الأوقات في انتظاره، لفتح الباب والقيام بخدمته ولا ترفض أمينة هذا الوضع ، حتّــى بينهــا وبــين نفسها، ونادرًا ماكانت تتأفف من سلوك زوجها أو تثور عليه « ولعلّ المرّة الأولى وربما الأخيرة التي انتقدت فيها زوجها بصورة مباشرة ماقالته لفهمي عندما حادثها فــي شــأن اعتزامه خطبة مريم ابنة الجيران : لاأدري ماذا يكون موقفه من هذا الرجــاء ؟ أبــوك شخصٌ غريب ، غير النّاس جميعًا، وقد يرى جريمةً فيما يراه الغير شيئا عاديا، ويُعلــق محمد جبريل على ذلك بقوله :وظنّي أن وصف أمينة للزوج الذي تحبــه وتخافــه بأنــه "شخص غريب" هفوة لسان من المرأة اللطيفة ، ولعلّها زلّة قلم من الفنان نفسه » [13]

لقد جعل الكاتب هذه المرأة خنوعا خضوعا ، فأهمل رغباتها ، وركــز علــى خــدماتها ،فجعل منها « المرأة الشيء ،وليست الكائن المعبر الرافض تارة ، والقابل تارة أخرى » [14]. ومن الأمور التي يلاحظها القارئ للثلاثية إهمال الكاتب الحديث عن وفاة أم أمينة فلم يخبرْنا بذلك إطلاقا في الوقت الذي أشارت فيه الرواية إلى موت السيدة أم شوكت ، وهنية أم ياسين ، قد يكون هذا الحدث غير فعال في أحداث السرد الروائي ، ولكن مع ذلك كان المفروض تغطية هذا الحدث الذي يفترض أن يكون ذا أثر في حياة أمينة علــى الأقــل ، لكن الكاتب أهمل عواطف المرأة ، وركز على خدماتها.

وليست أمينة في بيت بين القصرين هي النّمطية فقط ، فخديجة وعائشة أيضــا على نفس المِنوال ، ولذلك فقد أنَّبَتْ خديجة أختها عائشة عندما ضبطتْها تنظر من ثقــوب المشربية لضابط الجمالية ، واعتبرت ذلك أمرًا نُكرا ، لقد قالت بينها وبين نفسها مؤنبــة أختها « ولكن ماذنبك أنت ياسيّد أحمد عبد الجواد ؟ أسفي عليك ياسيد ياشريف يــاكريم ، تعال شوف حريمك ياسيدي وتاج رأسي»[15]

وإذا كان نساء بين القصرين لم يعرفن الخيانة على أي نحو فإنّ الرجــال فيهــا عاثوا فسادا بدءا بالأب أحمد عبد الجواد إلى ابنه ياسين الذي كان صورة عن أبيه بل فاقه ، وكأنّ الكاتب بذلك يُدين الرجال ، ويُعفي النساء ، فحتّى زنوبة التــي كانــت تشــتغل بالطرب حينما تزوجت أخلصت لحياتها الزوجية في حين بقي زوجها ياسين على غيّــه. ولكن أكثر النساء نمطية هي أمينة التي رضيت بالأمر الواقع، فبعض الشر أهــون مــن بعض، ومع أنها تكره أم الخبائث التي يعاقرها زوجها كل ليلة، في سكره إلا أنها آلفــت ذلك على مر الأيام ، بل وجدت في سكره نوعا من اللطــف والتنــازل عــن كبريائــه، ومعاملتها كزوجة لا كخادم.

يقول محمد جبريل : « لعل أداء أحمد عبد الجواد لواجباته الجنسية مع زوجتــه التي طالما أرعبها ظل استبداده، جاء في تلك الأوقات التي يعود فيها إلى البيت وهو متأثر بحالة النشوة التي تمليها معاقرته للخمر...تلك هي الإمكانية الوحيــدة التــي أتصــور أن الزوج المستبد عانق فيها زوجته ، السيناريو المغاير لن يكون إلا اغتصابا حقيقيا يقتصر فيه النظر إلى الزوجة على أنها مجرد إناء يفرغ فيه ما تبقى من امتلاء شــهوته عقــب عودته من سهرته الليلية »[16]

لقد كانت الخمر تجعل السيد أحمد عبد الجواد يتنازل عن بعض كبريائه ،فيسلم على زوجته قائلا لها :مساء الخير ياأمينة، ولم يذهب الكاتب أبعد من ذلك في تصوير العلاقات الزوجية ، وما أورده محمد جبريل هو مجرد تخمين لم تذكره الرواية صراحة، ولذلك قال : تلك هي الإمكانية الوحيدة التي أتصور أن الزوج المستبد عانق فيها زوجته.

**2- المشربية العلامة الدّالة:**

تمثل المشربية عُنصرًا هندسيا مميزا للبيوت القديمة، وبيت السيد أحمد عبد الجواد في الثلاثية نموذج لذلك ، والمشربية شرفة خشبية تُصنع من الأعمدة الرفيعة المتشابكة، والتسمية مشتقة من الشرب ، لأن المشربية تُوضع عليها القلل الفخارية لتبرد بفعل الهواء ، وتتقارب القطع الصغيرة الدقيقة التي تتكون منها المشربية ، فلا يستطيع الجيران أو المارة أن يروا ما بداخل البيت ، لكنها تأذن في الوقت نفسه بمرور الضوء الخافت والهواء إلى الداخل، وفي المشربية نوافذ صغيرة يمكن فتحها أوقات الضرورة(17) وعلى ذلك فالمشربية عنصر سيميائي يُشير إلى نوع خاص من الحياة الشرقية المتحجبة في زمن معين ، فما المشربية إلا امتداد للحجاب الذي ترتديه النساء ، وبالوقت نفسه مكان لتبريد الماء ، فهي تدل على ثقافة معينة ومستوى حضاري معين ، ولذلك لانجد المشربية في أحياء القاهرة الراقية ، لعدم الحاجة إليها،وقد اختفت المشربية من البيوت المصرية بعد سفور المرأة وخروجها للعلم والعمل.(18)

المشربية إذن هي السمة الدّالة على نوع من الحياة ، وخاصية من خصائص بيت السيد أحمد عبد الجواد، وتكمن أهمية المشربية في كونها نقطة الاتصال بين العالم الداخلي والعالم الخارجي، فعن طريق المشربية تنظر عائشة إلى ضابط الجمالية ، وتفتح النافذة الموجودة بها مستغلة أيام نفض الأثاث ، والتي تحدث مرة كل شهر.

لدينا إذن البيت (الدّاخل) بنُظمه الصارمة التي يفرضها السيد أحمد عبد الجواد على جميع أفراد الأسرة ، ولدينا الخارج المناقض أو بالأحرى المختلف عما في البيت ، وكل من الفضاء ين يُمثل نسقا ثقافيا له خصائصه ومواصفاته ،الأمر يتعلق إذن بنوع من الثقافة باعتبارها مجالا أودائرة جزئية مواجهة للمجال الآخر ، ولدينا في الثلاثية مجموعة من الأنظمة الثقافية ولكل منها سمات نوعية ، وتقوم كل ثقافة مقابلة للعناصر الضدية ، وهذه الثقافة تبدو نظاما من العلامات أبرزها هنا هذا العنصر الدال وهو المشربية التي تمثل نقطة الوصل بين الفضاء ين أو بين الثقافتين ، وتسمح المشربية من جهة أخرى

بكسر هذا الحجاب المفروض في البيت ، إذ الثقافة دوما بحاجة إلــى نقيضــها « ولكــنّ الثقافة ستظل أبدًا بحاجة إلى مثل هذا الضد ، إذ تبرز الثقافة هنا طرفا مقاوما لضـــده » (19) وتسمح باقتحام عناصر خارجية للداخل، ونظرا لأهمية المشربية فقد ورد وصفها في الرواية كثيرا، يقول الكاتب عن أمينة التي نهضت منتصف الليل منتظرة عودة زوجها من السهر « واتجهت صوب باب المشربيةففتحته ودخلتْ ، ثم وقفت في قفصها المغلق تـــردد وجهها يمنة ويسرة مُلقية نظراتها من الثقوب المستديرة الدقيقة التي تملأ أظلافها المغلقــة إلى الطريق، كانت المشربية تقع أمام سبيل بين القصرين ، ويلتقي تحتها شارعا النحاسين الذي ينحدر إلى الجنوب ،وبين القصرين الذي يصعد إلى الشمال » (20)

إن المشربية أشبه ماتكون بالقفص الذي يوضع فيه الطائر ، وقد وصف الكاتب أمينة في المشربية قائلا: ثم وقفت في قفصها المغلق تردد وجهها يمنة ويســرة ، وهـــي حركة الطائر داخل القفص، ولا تبدو أمينة ولا غيرها من نساء بين القصرين ضد هــذا العنصر الدال على ثقافة معينة ، فالمشربية هي المكان الذي ترتاح له وفيه أمينة كحارسة على هذا النظام « فإنها كانت ولم تزل الرمز الحي لحدبها على بعلهــا ، وتفانيهــا فـــي إسعاده ، وإشعاره ليلة بعد أخرى بهذا التفاني وذلك الحدب ، لهذا امتلأت ارتياحا وهـــي واقفة في المشربية ، وراحت تنقل بصرها خلال ثقوبها مرة إلى سبيل بـــين القصـــرين ، ومرة إلى منعطف الخرنفش ، وأخرى إلى بوابة حمام السلطان ، ورابعة إلى المآذن ، أو تسرحه بين البيوت المتكئة على جانبي الطريق في غير تناسق ، كأنها طابور من الجنــد في وقفة راحة تخفف فيها من قسوة النظام » (21)

وعندما يغادرالأب والأبناء البيت تبادر الأم والبنتان إلى المشــربية ، فــيقفن مـــن ورائها ليرين من ثقوب ه رجال الأسرة في الطريق « كانت هذه الساعة من أسعد أوقات الأم » (22)

منذ أن تزوجت أمينة قبل ربع قرن من الزمان من انطلاق السرد ، عندما كـــان عمرها أربعة عشرة سنة، لم يحدث أن خرجت من البيت بمفردها، بل لم تخرج إلاّ لزيارة أمّها وبصحبة الزّوج في حنطور ، فكانت لاتتجرأ إلى النظر حتّى إلى الطريق، بل تبقـــى ملفوفة في ملاءتها، وبذلك قضت المرأة مايزيد عن الربع قرن مـــن الزمـــان لاتعـــرف مايجري خارج المنزل ، إلا عن طريق السّمع، أو النظر من ثقوب المشـــربية ، فحياتهـــا بين حجرة الفرن، وحجرات البيت الأخرى والسّطح، وقد تحولت نظرتهـــا إلـــى المـــآذن

المُجاورة الصاعدة نحو السماء؛ فهي تُشاهد المآذن القريبة كمآذن قلاوون وبرقوق ،وأخرى أبعد قليلا كمآذن الحسين والغوري والأزهر ،وثالثة أبعد كمآذن القلعة والرفاعي « وتقلب وجهها فيها بولاء وافتتان،وحب وإيمان وشكر ورجاء، وتُحَلِّق روحها فوق ذراها أقرب ما تكون إلى السّماء ، ثم تستقر منها العينان على مئذنة الحسين أحبها ـ لحب صاحبها ـ إلى نفسها، فتتنفض نظرتها حنانا وأشواقا، مشوبة بحزن يطوف بها كلما ذكرت حرمانها من زيارة ابن بنت رسول الله وهي على مسير دقائق من مثواه »(23)

وكانت حين تنهض منتصف الليل منتظرة زوجها السّاهر دوما خارج البيت ، تستأنس بالنظر من خلال ثقوب المشربية إلى سبيل بين القصرين أو منعطف الخرنفش أو إلى المآذن ، وكان شارع بين القصرين يبقى ساهرا حتى مطلع الفجر، فيؤنسها ذلك، يقول الكاتب «لهذا ترن الضحكة فيه فكأنما تنطلق في حجرتها ، ويُسمع الكلام العادي،فتُميّزه كلمةً كلمةً، ويمتد السّعال ويخشوشن ،فيترامى لها منه حتّى خاتمته التي تُشبه الأنين ، ويرتفع صوت النّادل وهو يُنادي تعميرة تعميرة، كهتاف المؤذن ، فتقول لنفسها في سرور : « لله هؤلاء النّاس .. حتّى هذه الساعة يطلبون مزيدًا من التعميرة ثم تفكر في زوجها فتقول بينها وبين نفسها « تُرى أين يكون سيّدي الآن ؟ ..وماذا يفعل؟..فلتصحبه السلامة في الحل والترحال ؟..»(24)

أما هي فالخروج ممنوع عليها هي وابنتيها خديجة وعائشة ، وعندما سافر الأب لبعض أعماله ، زيَّن لها أبناؤها فكرة الخروج إلى الحسين ،وتاقتْ نفسها إلى ذلك ، وبتشجيع الأبناء وتهيئتها لهذه الزيارة خرجت رفقة ابنها كمال ، لكنها في طريق العودة تعرضتْ لحادث سيارة ألزمها الفراش عدة أسابيع ، وبعد عودة الزوج ، وجدت نفسها تصارحه تماما بما وقع لها ، فانتظرها حتى شُفيت ، وطردها ،فمكثت في بيت أمها عدة أيام ، ثم سمح لها بالرجوع ، ولم تخرج أمينة إلا بعض المرات لزيارة ابنتيها في قصر الشوق ،وسبب هذا الحجاب وسره يعود إلى الثقافة التي يحملها عبد الجواد والطبقة التي ينتمي لها ، وهي الفكرة التي تؤمن بها أمينة نفسها ، وتؤمن بها ابنتها خديجة التي تعد امتدادا لأمها ، ولكن هناك تطلعا لما في الخارج ، ورغبة في كسر هذا النظام ، وقد تحقق هذا الاختراق بصورة تدريجية ، وذلك على النحو الآتي :

1 – تطلع عائشة إلى الخارج ، وفتحها نافذة المشربية لرؤية الضابط الشاب ، مما عرضها لتأنيب أختها.

2 – خرق ياسين الابن الأكبر لحرمة البيت وقيمه، فقد حاول اغتصاب الخادمة أم حنفي ، وكرر الفضيحة مع نور خادمة زوجته ، مما أدى إلى هروب الزوجة زينب .

وأمام العناصر الدخيلة فإنه لابد من عملية تطوير لهذه الثقافة ، ولذلك فإنه مع تقدم السن ومرض السيد أحمد صارت أمينة تخرج لزيارة الحسين والست زينب، يقول محمد جبريل : « لقد شهد العالم حربين عالميتين ، وطرأت تحولات على المجتمع المصري ، وغابت مظهر حياة ، واستقرت مظاهر أخرى ، ونهضت أمينة من تحت قدمي أحمد عبد الجواد ،وجلست إلى جانبه ، ثم زادت فخرجت من البيت بينما اضطرته الظروف ، الشيخوخة إلى البقاء فيه »(25).

يتابع الكاتب حركة التطور الاجتماعي واصفا كل مرحلة بهدوء وتفصيل ، فيأتي التطور والتغيير مقبولا ومُقنعا لايكاد يثير استغرابا ، إذ بمرور الزمن وتطور الأحداث يصبح الخروج اليومي لأمينة مألوفا ، ويأخذ السيد أحمد عبد الجواد بعد مرضه مكان أمينة في المشربية.

**الرقة والحنان :**

تتصف أمينة بالرقة والعطف والحنيّة ، ويتجه عطفها بالدّرجة الأولى نحو أبنائها، لقد أتى أبناؤها إلى هذا الوجود تِبَاعا، فهمي وخديجة وعائشة وكمال،فكانت تغمرهم بأنفاس العطف والحنان، وقد زادها الاستسلام لإرادة الزوج والخضوع له رقة وحنانا وذُلا ،وكأنها قد قبلت بدورها هذا فقد خُص الزوج بالقسوة ، واختصت هي باللين ، وقد امتدت هذه الرقة لتشمل أيضا العطف على الحيوان والرفق به ، فكانت حين تقتضيها الظروف إلى ذبح بعض الدجاج أو الحمام، تتخير الدجاج أو الحمام فيما يشبه الضيق ، وقبل الذبح تسقيها وتترحم عليها، وتبسمل وتستغفر (26)

وقد امتد هذا العطف والحنان ليشمل حتى الأنجليز ، فهي لاتكرههم إلا لأن ابنها فهمي يكرههم ، تقول : «أسألك الرعاية لسيّدي وأبنائي ، وأمي وياسين ، والناس جميعا مسلمين ونصارى ،حتى الانجليز يارب ، وأن تُخرجهم من ديارنا إكرامًا لفهمي الذي لايحبهم»(27)

**نشاط أمينة ودورها في البيت:**

عالم أمينة هو العالم الداخلي ، ومملكتها هي البيت الواقع بين القصرين فقد وجدت نفسها «عقب وفاة حماتها وسيّدها الكبير ربة للبيت الكبير، تعاونها على أمره

الخادمة أم حنفي وتغادرها عند جثوم الليل لتنام في حجرة الفرن، بالفناء تاركة إياها وحيدة في دنيا اللّيل الحافلة بالأرواح والأشباح »[28] .

تطوف أمينة قبل النوم بمختلف الحجرات برفقة أم حنفي الخادمة، والمصباح في يدها، متفحصة الحجرات ، وتغلق الأبواب بإحكام، مبتدئة بالطابق الأول فالثاني ، وهي تتلو ما تحفظه من سور القرآن الكريم دفعا للشّياطين، ثم تذهب إلى حجرتها فتندس في الفراش ، ولسانها يتلو آيات من القرآن مقاومة للأرواح التي تشعر بها ، وتحس بهمساتها، وحين تضيق ذرعا تنظر من المشربية إلى الخارج فتستأنس بالمقاهي ، والعربات وحركات الشارع، وحين أتى الأبناء كانت تشرف على نوْمهم ،ثم تحاول النوم إلى قبيل عودة السيد من سهره، فتقوم بخدمته إلى أن ينام، وفي الصباح هي أول من ينهض ، فتتوضأ وتصلي ثم توقظ أم حنفي لأعداد الفطور، لقد كانت لأمينة مع الفرن علاقة خاصة « فلو حسب الزمن الذي قضته بين جدرانها لكان عمرا »[29] .

وإذا كانت أمينة في البيت تمثل سيدة بالنيابة عن الزوج،فإنها في حجرة الفرن (المطبخ) تشعر بالسيادة التامة، يقول الكاتب:« فهي في هذا المكان ملكة لاشريك لها، فهذه الفرن تموت وتحيا بأمرها... وهي هنا الأم والزوجة والأستاذة ، والفنانة التي يترقب الجميع والثقة ملء قلوبهم ماتُقدم يداها، وآية ذلك أنها لا تفوز بإطراء سيّدها إذا تفضل بإطرائها إلا عن لون من الطعام أحْكَمَتْ صنعه وطهيه » [30]

وكانت أمينة تحرص على تقديم الأكل بنفسها لأفراد أسرتها، والإشراف على خدمة الزوج، وتقديم كل ما يحتاجه إلى أن يخرج إلى محلّه ، وعندئذ توزع عمل اليوم على الفتاتين .

لقد أنشأت أمينة في النصف الجنوبي من السطح المُشْرف على النحاسين حديقة فريدة لا نظير لها في أسطح الحيّ كلّه، فقد بدأتْ بعدد قليل من أصُص القرنفل والورد ، وراحت تستكثر منها عاما بعد آخر حتى نضدت صفوفا بحذاء أجنحة السّور ، ونمت نموا بهيجا ، ثم أقامت فوق الحديقة سقيفة وغرست شجرتي ياسمين ولبلاب ثبّتتْ سيقانها في السقيفة فاستحال المكان بستانا ذا سماء خضراء ينبثق منها الياسمين ، ويتضوع في أرجائها عرف طيب ساحر[31].

كان سكان هذا السّطح من الدجاج والحمام ، وكان هذا المكان أثيرا لديها « وكم يمْلكها الفرح وهي ترمي الحب أو تضع في الأرض آنية السّقيا ، فيستبق إليها لدجاج وراء ديكها، وتنهال مناقيرها على الحب في سرعة وانتظام كآلة الخياطة »[32]

كما كانت الأم فضلا عن تقسيم الخدمة على البنتين ، تشرف بنفسها على تحفيظ ابنها كمال سورا من القرآن الكريم.

**بعض القيم الأخلاقية لأمينة**

تمثل أمينة القيم الأخلاقية التقليدية للمجتمع المصري ، والتي يطبعها الرضا والقناعة ، والطاعة التامة للزوج ، والحرص على تربية الأبناء تربية سليمة والمحافظة عليهم ،وتنهض المنظومة الفكرية لأمينة والمستمدة من الأجيال السابقة على جملة من القيم أبرزها الإيمان بوجود الأرواح في المنزل، الخوف من الحسد ، التبرك بالأولياء وزيارة الأضرحة

كانت أمينة تؤمن بالأرواح والعفاريت ، فهم يقاسمونها المنزل خاصة في الليل ، ولذلك فإنها تردد دوما بعض السور التي حفظتها عن أبيها ، وربما خاطبت أمينة الأرواح وكأنها تخاطب شخصا حاضرا معها «ابعد عنا ليس هذا مقامك ، نحن قوم مسلمون موحدون »[33]

كما كانت الأم أمينة تؤمن إيمانا تاما بالحسد،وتخشى على أفراد أسرتها منه ، ولذلك فإنها تدعو لهم بالسلامة، وتنظر لهم عندما يخرجون من ثقوب المشربية ، وهم في الشارع ، وهي تتلو آيات من القرآن حتى يبعد الله عنهم أعين الحساد.

إنّ هذه القيم تعشعش في ذهن السيد أحمد عبد الجواد الذي يتبرك بزيارة الشيخ متولي عبد الصمد ، فهو يقدم له التأمين الغذائي مجانا كلما قادت الزيارة الشيخ إلى دكان السيد أحمد عبد الجواد، ويبدو أن الشيخ كان يقوم بهذه الزيارات منذ القديم في حياة والد السيد أحمد ، وكان كلما زار الدكان وضع أحجبة للعائلة ، وحتّى عندما رفض فهمي اعتزال المظاهرات طلب السيد أجمد عبد الجواد من الشيخ وضع حجاب خاص للفتى ليبتعد عن هذا الخطر .

إنّه الإيمان بالغيبيات الصفة المتوغلة في النفوس والتي بدورها تُخترق عن طريق الأبناء ، حيث يظهر كمال بفكر جديد فسرعان مايتبين له زيف تلك الأفكار ، وحتى الحسين الذي تقدسه العائلة يبدو لكمال مجرد رمز خال من أية حقيقة ، ثم يتطور

الأمر مع جيل الأحفاد ليظهر أحمد ذو الاتجاه الشيوعي ولكنّ الأم تبقى محافظة على منظومتها الفكرية ، وحبها للحسين والست زينب ، ومن أجل زوجها تزور هذه الأماكن يوميا ، فحياتها تقوم على الإيمان بهذه الأمور الغيبية ، وعندما يتوفى زوجها تجعل زيارتها للمقبرة الصورة المتكررة.

**الهوامش**

[1] ـ نجيب محفوظ : بين القصرين ،مكتبة مصر ، ص 6

[2] ـ عمر رضا كحالة : الجمال البشري، مؤسسة الرسالة ،بيروت،ط1980،1 ، ص 57

[3] ـ نجيب محفوظ : قصر الشوق ، مكتبة مصر، ص 6

[4] ـ نجيب محفوظ : السكرية، مكتبة مصر، ص 5

[5] ـ حسن البنداري : البنيات الكاشفة عند نجيب محفوظ ،دراسات في النص القصصي من عام 1979 إلى عام 1996، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر ،2004 ص 17 نقلا عن مجدي وهبة ،و المهندس : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مكتبة لبنان،بيروت،ط2 ،1984 ص 16.

[6] ـ نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 200

[7] ـ نجيب محفوظ : قصر الشّوق ، ص 60

[8] ـ نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 12

[9] ـ نجيب محفوظ : قصر الشّوق ، ص 60

[10] ـ نجيب محفوظ : بين القصرين، ص 9

[11] ـ نوال السعداوي : المرأة والجنس،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ،ط2،تشرين الثاني ، 1972، ص 125

[12] ـ إيمان القاضي : السمات النفسية والفنية للرواية النسوية في بلاد الشام 1950- 1985 ، ص 125.

[13] ـ محمد جبريل : مصر في قصص كتابها المعاصرين،ج 1، مكتبة الأسرة 2008، ص 1390.

[14] ـ مفقوده صالح :المرأة في الرواية الجزائرية ، وزارة الثقافة ، الجزائر ، ط2، 2008 ص 132.

[15] ـ نجيب محفوظ : بين القصرين، ص 133

[16] ـ محمد جبريل : مصر في قصص كتابها المعاصرين، ص 1280

[17] ـ يُنظرمحمد جبريل:مصر المكان،دراسة في القصة والرواية،الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية،مصر،2000 ص233.

[18] ـ ينظرمحمد جبريل : مصر المكان،دراسة في القصة والرواية ص 236.

[19] ـ يوري لوتمان وبوريس أوسبنسكي (حول الآلية السيميوطيقية للثقافة)ترجمة عبد المنعم تليمة ،ضمن كتاب أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، مدخل إلى السيميوطيقا،

مقالات مترجمة ودراسات ، إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبوزيد، دار إلياس العصرية ، القاهرة . د- ت ص 296

[20] ـ يُنظر محمد جبريل: مصر المكان ، ص 236

[21] ـ نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 09

[22] ـ نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 26

[23] ـ نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 36

[24] ـ نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 9

[25] ـ محمد جبريل : مصر في قصص كتابها المعاصرين، ص 1192

[26] ـ نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 35

[27] ـ نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 35

[28] ـ نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 7

[29] ـ نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 17

[30] ـ نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 18

[31] ـ نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 35

[32] ـ نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 35

[33] ـ نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 34.